الفصل العاشر

أنتشار الطباعة في أوربا
وأشهر الطابعين وأشهر الكتب المطبوعة

انتشر فن الطباعة بسرعة خاطفة في كل ارجاء اوربا ولكن بمعايير وسرعات مختلفة . ولعل المانيا كانت اول البلاد التي انتشر فيها هذا الفن بسرعة واتقان ، ثم تأتي بعد ذلك ايطاليا ففرنسا والاراضي الواطئة وانكلترا .

هذا وان فن الطباعة انتشر اول ما انتشر في جنوبي المانيا ، ويرجع السبب في ذلك الى ان معظم المدن التي انتشر فيها هذا الفن بشكل مبكر تقع قريباً من منيز مهد الطباعة الاول ، وهناك سبب اكثر اهمية ادى الى انتشار فن الطباعة في هذه المدن وذلك لوقوعها على الطرق التجارية التي كانت تصل المانيا واوربا بموانىء البحر الأبيض المتوسط والشرق . فضلاً عن أن المراكز التجارية الكبرى هي التي كانت تمد المطابع باحتياجاتها ومستلزمات العمل فيها ، على حين أن المدن الأقل أهمية لم تكن تجد عملاً كافياً إلا لفترة قصيرة جداً .

ولقد ازدهرت في نهاية القرن الخامس عشر تجارة الكتب ازدهاراً كبيراً بحيث شملت معظم مناطق اوربا الغربية ، وكان مركزها الرئيسي مدينة بال حيث جمع زعيم الحركة الانسانية فيها ايراسموس حوله جماعة بال الانسانية ، ومن بال انتشرت التيارات التجارية والثقافية الجديدة الى مدينة ليون مركز الطباعة في اوربا الغربية ، كما انتشرت نفس التيارات الى البندقية حيث عمل فيها عدد من الطابعين اشهرهم الدوس مانوتيوس .

الطباعة في المانيا :

ما ان استولى فوست على الات وسطابع غوتنبرغ حتى اسس مطبعة جديدة في منيز بالاشتراك مع الماني آخر هو بيتر شوفير الذي كان اول امره رساماً للمخطوطات وفناناً لصورها في باريس . وقد افتتحا عملهما عام ١٤٥٧ م بطبع كتاب المزامير الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وهناك سلسلة طويلة من الكتب التي صدرت بعد ذلك عن مطبعة الشريكين ـ من بينها توراة فاخرة ذات ثمانية واربعين سطراً طبعت سنة ١٤٦٢ م ـ تشهد كلها بمواهب شوفير الخارقة، كما تشهد بنشاطه السابق في فن الزخرفة والرسم حتى انه اصبح يعتبر الروح المحركة للمشروعات الطباعية التي مولها فوست . وقد استمر شوفير في ادارة المطبعة بعد وفاة فوست حتى وفاته هو سنة ١٥٠٢ م .

كان شوفير يصهر حروفه بنفسه ، كما كانت هذه الحروف تمتاز على حروف غوتنبرغ بالدقة والصلابة ، الى درجة انه لم يقنع بحروف غوتنبرغ التي بقي جانب منها محفوظاً لدى الطابع البرت فيستر بمدينة بامبرغ حتى سنة ١٤٦٠ م .

هذا وتعتبر مدينتا بامبرغ وستراسبورغ المدينتين الاوليين اللتين انتشر فيهما فن الطباعة بعد منيز مباشرة . ولقد اسس البرت فيستر في بامبورغ مطبعة سنة ١٤٦١ م استعمل حروف غوتنبرغ نفسه وقام بطبع مالايقل عن عشرة كتب .

كذلك اسس جوهان مانتيلينJohann Mentelin في ستراسبورغ مطبعة حوالي سنة ١٤٦١ م ، وانتج عدداً من الكتب وصلتنا نسخ منها وهي بحالة جيدة . ولقد خلف مانتيلين في ادارة المطبعة صهره ادولف راش ، ولكن اسمه لايظهر على اي من الكتب التي قام بطبعها هو ، ولكن راش كان اول طابع استخدم حروفاً رومانية في الطباعة ، وتميزت حروفه باستعمال حرف الR بشكله الكبير حتى انه اتخذ لقب الطابع آرR – Printer .

ولكن ما ان تأسست مطابع في كل من بامبرغ وستراسبورغ حتى حدث ما جعل معظم اصحاب المطابع في منيز وبامبرغ وستراسبورغ يهجرونها ويؤسسون

مطابع جديدة في غيرها . ذلك ان الصراع الداخلي في المانيا بين الامراء والكنيسة انفجر في منيز بما يسمى حرب الاساقفة حيث تحارب رجال الدين وانصارهم من الامراء ضد الامراء الآخرين من اجل النفوذ والسيطرة على البلد وكان ذلك سنة ١٤٦٢ م . ولقد دمر الكونت ادولف دوناساو زعيم الحزب المنتصر المدينة وطرد قسماً كبيراً من سكانها مما اضطر الطابعين بها الى هجرها . وكان من بين هؤلاء شوفير نفسه الذي استقر بمدينة فرانكفورت ، حتى لقد قيل ان تدمير منيز ساعد على سرعة انتشار الفن الحديث . ولقد بلغ عدد المدن الالمانية التي بها مطابع اكثر من عشرين مدينة خلال النصف قرن الذي تلي اختراع غوتنبرغ الطباعة .

وتعتبر مدينة نورنبرغ في المانيا اكثر المراكز اهمية في الطباعة ، وذلك في نهاية القرن الخامس عشر ، ونبغ بها عدد من الطابعين لعل اشهرهم انطون كوبرجرAnton Koberger ، وقد طبع كوبرجر عدداً من الكتب اشهرها على الاطلاق هو كتابLiber Chronicarum الذي اصدره سنة ١٤٩٣ م . واتت شهرته من انه زوده ب ١٨٠٠ وسيلة ايضاح كلها محفورة بالخشب .

ولقد استخدم اوائل الطابعين ادوات بدائية ، وهذه المطابع تمثل في جوهرها نفس مظهر مطابعنا قبل تعديلها وادخال الالات الحديثة عليها . فكانت المكابس الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط تبدو ضخمة أكثر من ما هي عليه وهي مثبتة في قاعة المطبعة بالسقف والأرض . أما المكبس نفسه فكان يضغط على الورق بعد وضعها على الحروف المجمعة . ولكي يتم الضغط كان المكبس يدار بالقوة البدنية وكان مزوداً بمبرم خشبي ثقيل ، ولابد من بذل مجهود بدني حتى يتم الحصول على الضغط المطلوب .

وكان المكبس اصغر حجماً من اطار الحروف المجمعة ، ولهذا لم يكن من اليسير ، بوجه عام ، طبع ورقة كاملة دفعة واحدة مما اضطر الطابعين الى تقسيم الاوراق الى عدة اجزاء يطبع كل منها وحده ، ثم يجمعها المجلد فيما بعد .

وكان صف الحروف وجمعها يتم ـ وفقاً لنفس المبدأ المتبع في وقتنا الحاضر في المطابع اليدوية ـ بواسطة مخدتين من الجلد مزودتين بمقابض ، وتحبر الحروف المجمعة . ولابد من مران طويل لاكتساب الخبرة اللازمة لضبط عملية التحبير

وجعل الحبر ينتشر على جميع اجزاء الصفحة بدرجة واحدة ولتجنب المساس بحروف العمود المجمع ، مما قد يؤدي الى اختلال السطور .

غير ان حفر حروف الطباعة ، وبشكل خاص عملية صهر الحروف كانت ادق عملية بالنسبة لاولئك الرواد من الطابعين . وكان الجانب الاساسي من الآلة المستخدمة في صهر الحروف مصنوعاً من النحاس الاحمر او الاصفر ، اما الآلة نفسها فكانت مصنوعة من الرصاص ، وكانت تسمى القالب ، والرصاص مادة قابلة للتلف ، اذا كثر استعمالها بحيث ان الحروف كانت تفقد صلابتها وتتآكل حوافها الدقيقة مما كان يؤثر على انتظام حروفها عند الطبع .

اقدم الكتب المطبوعة :

على الرغم من تلك العيوب الفنية ، نجد اقدم الكتب المطبوعة على جانب كبير من الجمال الفني ، وذلك بسبب اتباعها للتقليد القديم الذي كان معروفاً في مخطوطات العصور الوسطى التي كانت نماذج لها . ذلك ان من البدهي ان يتخذ اوائل الطابعين المخطوطات نماذج لمطبوعاتهم ، فحفروا حروفهم الطباعية على نسق الكتابات المخطوطة مقلدين في ذلك حرفياً شكل الصحيفة العام من جميع نواحيها ، بل ومقلدين لها في جميع النقاط التي لم يكن الفن الطباعي آنذاك قادراً على تنفيذها ، وخاصة عند تصميم شكل الحروف الاولى الكبيرة ، وما اليها من زخارف ؛ حتى انهم اضطروا الى الرجوع الى الطرق القديمة ، كما لجأوا الى استعمال الالوان اليدوية حتى انتهى بهم الامر الى ان اتخذ الكتاب المطبوع الاول بشكل واضح مظهر المخطوطات المكتوبة على الرق التي كانت سائدة في العصر الوسيط والمكتوبة على الرق ، وادى هذا الى خلق روائع لاتقل اتقاناً وجمالاً عن المخطوطات المزخرفة المكتوبة على الرق .

توراة غوتنبرغ ١٤٥٥ م :

ان القاء نظرة فاحصة على توراة غوتنبرغ تجعل المرء يتأكد من صحة ما ذكرناه آنفاً عن هذه التوراة المطبوعة في مجلدين من حجم النصف في سنة ١٤٥٥ م . وقد سبق ذكر هذه التوراة عند كلامنا عن غوتنبرغ نفسه . واذا لم يفحص الانسان هذا الكتاب عن قرب ظنه مخطوطاً . وتعرف هذه التوراة باسم التوراة ذات الاثنين والاربعين سطراً ، وذلك لان الصفحة الواحدة من هذا الكتاب مقسومة الى عمودين متوازيين يحوي كل واحد منهما اثنين واربعين سطراً . كذلك يعرف هذا الكتاب باسم توراة مازاران ، ذلك لان اول نسخة من هذا الكتاب لفتت انظار خبراء الكتب كانت النسخة التي احتفظ بها الكاردينال مازاران الوزير الفرنسي الشهير في القرن السابع عشر في مكتبته الخاصة . وكما سبق وذكرنا قبل قليل فان الصفحة الواحدة من هذه التوراة المكونة من الف ومائتي صفحة مقسومة الى عمودين متقابلين ، كما وان اسلوب حروفها هو نسخة طبق الاصل عن الكتابة القوطية في آخر مراحلها ، كما تشاهد في المخطوطات الدينية الكبرى الفاخرة بكل ماتحويه من حروف قوية كبيرة كثيرة الزوايا . كما وان الطابع ترك مكاناً خالياً مناسباً ليرسم باليد فيما بعد وبعد انتهاء الطباعة ، رؤوس الفقرات والحروف الاولى وعناوين الفصول والرسوم الهامشية ، وان لم يمنع ذلك من طبع بعضها بالحبر الاحمر في بعض النسخ .

هذا ولم يزل باقياً حتى الآن احدى واربعون نسخة من توراة غوتنبرغ هذه ، منها اثنتا عشرة نسخة مطبوعة على الرق ، كما يحتمل ان الطبعة المذكورة من هذه التوراة لم تزد على مائة نسخة تقريباً . ولابد من التنويه انه دفعت اثمان خيالية بعدد قليل من نسخ هذه التوراة عند عرضها للبيع . فقد دفع في احدى نسخ هذه التوراة مبلغ اربعة الاف جنيه استرليني في لندن عندما عرضت في احد المزادات سنة ١٨٩٧ م . كذلك اشترى احد الامريكيين نسخة من هذه التوراة من دير ملكMelk النمساوي بمبلغ قدره مائة الف وخمسة الاف دولار وقدمها هدية الى مكتبة جامعة ييل الامريكيةYale الكائنة في مدينة نيوهافن ، وكان ذلك سنة ١٩٢٧ م .

وهناك توراة اخرى مشهورة هي توراة شلهورنShellhorn ، وهي توراة ذات ستة وثلاثين سطراً في كل عمود ، وتعزى هذه ايضاً ، كسابقتها ، الى غوتنبرغ ، وان كان من المحتمل ان يكون قد طبعها في مدينة بامبرغ بنفس الاحرف التي استخدمها غوتنبرغ سابقاً .

كتاب مزامير منيز سنة ١٤٥٧ م :

هناك ماهو اجمل من توراة غوتنبرغ ، وهو كتاب المزامير الذي طبعه في منيز سنة ١٤٥٧ م فوست وشوفير والذي مر ذكره . وهو ، بطباعته الفاخرة على الرق ، يمثل الاوج الذي وصل اليه فن الطباعة الاولى ، كما وانه يعتبر في نفس الوقت ، اول الكتب المطبوعة التي تشير الى زمن الطباعة والطابع :

وفيما يلي ترجمة دقيقة وافية للصيغة النهائية التي اثبتها الطابعان في نهاية الكتاب في الجزء المخصص لمثل هذه الامور والمسمىColophonوهي كما يلي : أنشيء كتاب المزامير هذا بفضل فن الطباعة وسبك الحروف دون ادنى استعمال للقلم في كتابته ، وطبع لتمجيد الله بفضل عناية ودقة جان فوست من اهالي مدينة منيز ، بالاشتراك مع بيتر شوفير من اهالي مدينة جيرنشايم وقد تم ذلك في عام ١٤٥٧ م ليلة صعود العذراء الى السماء(اي ١٥ من آب) .

نستنتج من هذا الاقرار ان هذا الكتاب قد تم طبعه كله على الالات الطابعة ، بما في ذلك الحروف الاولى بالغة الجمال والمطبوعة باللون الاحمر او الاحمر والازرق ، والتي يبدو انها حفرت على المعدن لاعلى الخشب . ويحمل كتاب المزامير هذا اول علامات الطابعين فيما نعلم ، فقد ظهرت علامة الطابعين تحت اسميهما في الكولوفون ، وتتألف من ترسين اسودين متدليين من غصن شجرة . ولم يلبث هذا التقليد ان عم استعماله وانتشر كل الانتشار واستعمله الطابعون ووقعوا به مطبوعاتهم ووسموها بعلامة خاصة او صورة صغيرة هي شعار هذا الطابع المميزة له عن غيره ، وذلك لما لها من اهمية وتأثير زخرفي عظيم . ولايزال في الوجود من هذه المزامير ما يقرب من عشرين نسخة موزعة في عدد من متاحف

العالم ومكتباته ، ولعل اجملها تلك النسخة التي تحتفظ بها المكتبة الاهلية في فينا .

نستخلص مما مر امتياز الكتب المطبوعة الاولى بخاصة تقليد المخطوطات ومحاكاتها . وما لبث ان شمل هذا التقليد أيضاً بعض التفاصيل الطباعية الاخرى ، كعلامات الاختزال التي كانت شائعة الاستعمال في المخطوطات ، كما امتازت بانعدام العنوان فيها . ونقصد بالعنوان هنا العنوان بالمعنى الحقيقي للكلمة او المعنى المفهوم المتعارف عليه لهذه الكلمة الآن . ذلك ان النص كان يُبدأ به من الصفحة الاولى مسبوقة بكلمات تمهيدية مثل كلمةIncipit اللاتينية (وتعني يبدأ) او مثل كلمتيHie Incipit (هنا يبدأ) . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة يقع في كتيب صغير عنوانه**نداء للمسيحية ضد الاتراك** ، وهو مطبوع بحروف غوتنبرغ في سنة ١٤٥٤ م . ولم يعد باقياً منه الان سوى نسخة واحدة موجودة في مكتبة الدولة في ميونيخ من المانيا . اما وجه الاستثناء فيه فينحصر في طبع عنوانه اعلى الصفحة الاولى ، بينما العنوان الحقيقي المتعارف عليه الآن يطبع على صفحة خاصة به ، وهذا لايظهر في الكتب المطبوعة الا منذ سنة ١٥٠٠ م تقريباً . يحمل هذا الكتاب ـ في قالب تقويم ـ نداءً موجهاً الى الدول المسيحية لقتال الاتراك الذين كانوا استولوا في السنة الماضية على القسطنطينية ، كما انه كان معداً للنشر على نطاق شعبي واسع ، شأنه في ذلك شان كتب المانية اخرى عديدة ، تعود الى العصر الاول للطباعة .

الطباعة في ايطاليا :

لم يلبث فن الطباعة ان انتشر في ارجاء اوربا ، واصبح للطابعين الالمان ، وبخاصة اولئك الذين عاشوا في منيز او اشتغلوا كطباعين بها ، شهرة عريضة جعلت كثيراً من الطباعين الالمان يدعون ، بحق او بغير حق ، انهم من منيز وانهم تعلموا مهنتهم فيها .

ولقد كانت ايطاليا من اوائل البلدان الاوربية التي انتشر فيها فن الطباعة في زمن مبكر ، ولاعجب من ذلك ، فقد كانت ايطاليا آنذاك لاتزال مركزاً ثقافياً وتجارياً مهماً ، كما وانها كانت مركز البابوية ، ولروما بشكل خاص ، مكان مرموق لدى العالم المسيحي كله . وقد اشتهرت مدن ايطاليا الاخرى ولاسيما البندقية وجنوة ، بغناها وثراها وتقاليدها الفنية ، ولذلك اجتذبت الطباعين من كل حدب وصوب ولاسيما من منيز ، ونخص بالذكر طابعين من منيز تركاها قاصدين روما ، وهما من تلاميذ شوفير ؛ الاول كوفراد زفاينهايمSweynheym والثاني ارنولد بانارتزPannartz . ولكنهما ذهبا الى مدينة سوبياكوSobiaco وديرها المعروف باسمها بالقرب من مدينة روما ، وهناك اسسا مطبعة في الدير سنة ١٤٦٤ م وطبعا اول كتاب طبع في ايطاليا وهو كتاب في النحو اللاتيني اسمه دوناتس ، ولم يصلنا منه ولانسخة .. كذلك طبعا بعد ذلك كتابين آخرين الاول فن الخطابة لشيشيرون والثاني مجموعة مؤلفات لاكتانتيوسLactantius وقد صدر الكتابان سنة ١٤٦٥ وكتاب شيشرون اقدم من مجموعة لاكتانتيوس بحوالي شهرين .

ولقد بقي الطابعان الالمانيان في سوبياكو حتى سنة ١٤٦٧ م . وقد دعيا بعد ذلك للذهاب الى روما فذهبا اليها ، ولكنهما طبعا قبل ان يتركا سوبياكو كتاب القديس اوغسطين المسمى باسممدينة الله . وقد اسسا مطبعة في روما وعكفا هناك على طبع ونشر سلسلة طويلة من الكتب خلال السنوات السبع التالية ، ضمت ، حسب روايتهما الشخصية ، -حوالي ستة وثلاثين كتاباً ، مكونة من ١٢٤٧٥ نسخة . وهذه المجاميع تحوي في اساسها نصوصاً دينية لاتينية قديمة . وكانا يطبعان من كل كتاب بين ٢٧٥ الى ٣٠٠ نسخة . واخيراً افترق الشريكان عن بعضهما سنة ١٤٧٤ م . وقد استمر بانارتز في عمله بالطباعة في روما حتى وفاته سنة ١٤٧٦ م . على حين التفت زفاينهايم الى انتاج الخرائط بالحفر على المعدن لحساب احد الطابعين ، وظل يعمل حتى وفاته سنة ١٤٧٧ م . وقد وجد في روما في ذلك الزمن حوالي عشرة طابعين ، كلهم من المانيا ويعملون في الطباعة في ايطاليا .

ولقد هاجر الى ايطاليا عدد كبير من الطابعين الالمان واستقر بعضهم في روما ، بينما استقر عدد آخر من الطابعين الالمان في عدد من المدن الايطالية الشهيرة الكبيرة كالبندقية وجنوة .

ولقد كانت ظروف العمل في البندقية اكثر ملاءمة للعمل الطباعي من غيرها ، ذلك لغنى البلدة واشتغالها بالتجارة وعلاقاتها الواسعة مع ارجاء كثيرة من العالم . ونجد فيها ان طبع الكتب اصبح ـ لاول مرة ـ عملاً تجارياً له قواعده واصوله . ولقد صدر فيها من الكتب المطبوعة عدد يفوق ماصدر في جميع المدن الايطالية الاخرى مجتمعة . ولهذا هاجر اليها منذ سنة ١٤٦٩ م عدد من الطابعين الالمان من اقدمهم الاخوان جوهان ووندلن دي سبير اللذان طبعا اول كتاب باللغة الايطالية وهو كتاب**اشعار بترارك** .

كذلك هاجر الى البندقية نيقولا جينسون من فرنسا الذي كان حفاراً لقوالب صك العملة في بلاط شارل السابع ملك فرنسا آنذاك ، ثم اوفده الملك ، على مايقال ، الى منيز سنة ١٤٥٨ م ليتعلم فيها الفن الجديد . ويعتبر جينسون هذا من اعظم واشهر مصممي حروف الطباعة مدى العصور . ولقد استعمل جينسون اسلوب الخط الروماني الذي كان يستعمله الانسانيون في شمالي ايطاليا . ولكنه طوره وابتكر منه حرفاً رومانياً ظل الى ايامنا هذه نموذجاً يحتذيه الاخرون . وهو حرف سهل التركيب والمظهر يريح العين في القراءة وعلى جانب عظيم جداً من الجمال . وقد تم ذلك في البندقية منذ سنة ١٤٧٠ م . ولقد بلغ عدد الكتب التي طبعها جينسون في مطبعته في البندقية اكثر من ١٥٠ عنواناً مختلفاً . ولقد كانت اوائل الكتب التي طبعها كتباً كلاسيكية لاتينية ، ثم التفت الى طباعة كتب في مختلف الموضوعات ، ثم اخترع حرفاً يونانياً . واثبت مقدرته كناشر ومحقق للكتب التي طبعها . اذ كان باحثاً وقام بنفسه بتحقيق النصوص التي تولى طبعها ، وتشهد كتبه التي طبعها بدقتها العظيمة . ولقد ساعد جنيسون كل المساعدة في جعل الكتب المطبوعة شعبية وساهم في توسعة دائرة القراءة والمطالعة .

ويعتبر الدوس مانوشيوسAldus Manutius الطباع الثاني الشهير في تاريخ البندقية الذي يناقض جينسون من حيث هو بحاثة على حين ان جينسون كان رجل مهنة وفناناً في عمله اكثر من كونه باحثاً . فقد استخدم الدوس الطباعة وسيلة ، وهو نفسه كان يعرف اللاتينية والاغريقية والف كتباً في هاتين اللغتين ونحوهما . وقد انتقل الدوس الى البندقية سنة ١٤٩٤ م واسس مطبعة فيها سنة ١٤٩٥ م وكان هدفه نشر طبعات نقدية للمؤلفين الكلاسيكيين القدامى خاصة ، ولذا فقد صدر عن مطبعته حتى حزيران سنة ١٤٩٩ م ثلاثون كتاباً ، ثمانية عشر واحداً منها باللغة الاغريقية ، وهي معاجم وكتب نحو وصرف .

ولكن الدوس ، على الرغم من كونه بحاثة ، الا انه كان رجل اعمال واراد ان ينتج كتباً علمية يقرؤها الجميع لاالبحاثة والعلماء فقط ، ولذلك فقد اخترع ما يمكن ان نسميه الكتابة السريعة . ذلك انه استعمل اولاً الحروف الرومانية التي كان قد اخترعها واستعملها بنجاح نقولا جينسون ، واخرج كتبه بحجمي النصف والربع ، وهي الاحجام التي كانت شائعة الاستعمال في ايطاليا ؛ الا انه ما لبث ان خرج عن هذا التقليد سنة ١٥٠١ م عندما طبع كتاباً لفيرجيل بحجم الثمن . ثم بدأ يطبع المؤلفات الاكلاسيكية بحجم الثمن أيضاً ، وهي ما يمكن ان يسمى بمفهوم العصر الحاضر كتب الجيب وحجم الجيب . واستخدم لهذه الطبعات حروفاً جديدة تماماً كانت منسجمة كل الانسجام مع حجم الصفحات الجديد في تلك الكتب الصغيرة . وتقول احدى الروايات ان هذه الحروف مستوحاة من خط بترارك نفسه .

وان اول عمل مهم قام بنشره الدوس هو مؤلفات ارسطو . ذلك انه بدأ بنشرها اعتباراً من اول سنة ١٤٩٥ م ولم ينته من نشرها الا في سنة ١٤٩٩٠ م . وقد اصدرها في خمسة اجزاء ضخمة من حجم النصف . وتعتبر اول طبعة كاملة باللغة الاغريقية .

وكما ذكرنا آنفاً ، فقد اشتهر الدوس بطبعه المؤلفات الكلاسيكية القديمة وسميت هذه الطبعات باسم طابعها الطبعات الالدية للمؤلفات الكلاسيكية ، ويعني بذلك خاصة الطبعات الصغيرة للمؤلفات الكلاسيكية التي طبعها الدوس

بالحروف السريعة والتي نشرها بكميات كبرى خلال حياته ؛ ومن بينها الثمان وعشرون طبعة الاولى ، وهي الطبعات الاولى التي بنيت مباشرة على اساس المخطوطات القديمة غير المنشورة .

وكان الدوس ، في اول امره ، يقوم بنفسه بالابحاث اللغوية اللازمة . غير انه عندما اتسعت دائرة ابحاثه بعد ذلك ، اضطر الى استخدام مساعدين ، فجمع حوله في داره جماعة من المساعدين عرفت باسم اكادمية الدوس الجديدة . وبفضل هذه الطبعات الالدية الصغيرة الرخيصة الثمن ، سهل انتشار مؤلفات الكلاسيكيين ومعها ثقافة الانسانيين اكثر من ذي قبل . وما لبثت هذه الطبعات الجميلة الالدية ـ بالشارة الطباعية الجميلة على صفحتها الاولى والمكونة من درفيل ملتف حول مرساة ـ ان صارت طبعات شهيرة شعبية واشتد عليها الطلب الى درجة ان صار لها مقلدون ، وخاصة في مدينة ليون ، حيث وجد عدد كبير من هذه المطبوعات المقلدة . ولقد استخدم هذه الطبعات الالدية شباب الطلاب اكثر من غيرهم ، ولذا تلف عدد كبير منها تلفاً تاماً بسبب كثرة استعمالها ، حتى اصبحت اليوم لايمكن العثور عليها تقريباً ، على ان شهرة هذه المطبوعات لاتعزى فقط الى حجمها وحداثة حروفها السريعة وطباعتها النظيفة وجودة ورقها ـ وانما تعزى ايضاً الى عنايتها بتحقيق النص ، وباختصار الى المجهود العلمي والفني الذي خصص لها .

ولقد اشتهر ايضاً الدوس بالزخارف الجميلة التي ادخلها على فن طباعة الكتب . فلم يكن الحرف المائل هو الحدث الوحيد الذي استحدثه الدوس في فن الكتاب ، وانما استعمل ، بذكاء وفهم ، عدداً من الافاريز الزخرفية والاطارات التي زين بها كتبه دون اسراف . ولقد جرى الدوس على رسم الزخارف على الاطارات وحدها ، وترك قاعدة الرسم وخلفيته خالية من اية اضافة اخرى . وقد بلغ الدوس نهاية الهامه وقمة مجده عندما قام سنة ١٤٩٩ م بنشر رواية **معركة في الحلم** للراهب الدومينيكاني كولونا . ويحوي الكتاب حوالي ٢٠٠ رسم مرسومة بالخط الرفيع الذي يلتزم حدود الطراز الكلاسيكي وان مايرفع من قيمة هذا الكتاب هو الترابط والتآلف الموجود بين مختلف الزخارف وبينها وبين احرف النص

حتى ان الكثير من البحاثة لايزالون يعتبرون هذا الكتاب اجمل كتاب اخرجته المطابع حتى اليوم واكمله .

كذلك امتاز الدوس بالتجليدات الرائعة التي كان يجلد بها كتبه ، وكان بعضها يجلد على البارد ، وبعضها الآخر ادخل اليه التذهيب .

ولابد من ذكر ان حياة الدوس لم تكن سهلة في البندقية ، فقد عانى صعوبات مالية ، واوقف مرة بتهمة انه جاسوس واحرقت مطبعته وسويت الارض . وقد استمرت اسرته تقوم بالطباعة في البندقية اكثر من ١٠٠ سنة بعده . وان قبر الدوس موجود في كنيسة في البندقية قرب مطبعته .

هذا وقد وصل عدد الطابعين في البندقية قبل سنة ١٥٠٠ م ٢٦٨ طابعاً ، و٦٣ طابعاً في ميلانو و٤١ طابعاً في روما .

الطباعة في الاراضي الواطئة :

انتشر فن الطباعة في الاراضي الواطئة في السنوات التاية لعام ١٤٧٠ م ، واول مطبعة اسست في مدينة اوترخت . وان اقدم الكتب التي طبعت هنا لاتحمل اسم الطابع ولاتاريخ الطباعة . كذلك استخدم الطابعون هنا ، كما في المانيا ، الحروف القوطية في الطباعة . على ان الفن الهولندي الخاص بالتصوير بطريقة الحفر على الخشب ، والذي ساعدت كثرة انتاج الكتب اللوحية على تقدمه في هذه البلاد ، كان مزدهراً . ومن اشهر مطبوعات هذه المدينة كتاب مصور اشتهر بجماله وهو كتاب **الفارس الحكيم** المطبوع سنة ١٤٨٦ م .

ولقد انتقل فن الطباعة سنة ١٤٨٠ م الى انفرس التي اصبحت المركز الثقافي الرئيسي في الاراضي الواطئة مما ساعدها على احتلال مكانة مرموقة في ميدان انتاج الكتب . ويعتبر جيراردلي من اشهر الطابعين ومن انشطهم في حقل طباعة الكتب الانكليزية وتصديرها الى انكلترا . ولكن اول من طبع كتاباً باللغة الانكليزية هو وليم كاكستون . وقد طبعه في بروج من بلدان الاراضي الواطئة واسمه **مجموعة تواريخ طروادة** .

الطباعة في فرنسا :

ان اول كتاب طبع في فرنسا كان في باريس سنة ١٤٧٠ م وقد قام بطبعه ثلاثة من الطابعين الالمان الذين استدعاهم لتأسيس مطبعة في فرنسا اثنان من اساتذة السوربون ، احدهما غليوم فيشهFichet ؛ والكتاب الذي تم طبعه هو **مجموعة الرسائل اللاتينية** . ومن المهم ان نلاحظ ان غليوم فيشه ، وهو احد اساتذة السربون القلائل الذين ادركوا أهمية الفن الجديد ، ذكر ان باخوس Bacchus وسيرس Ceres قد عظمهما الناس ومجدوهما لانهما علما البشر استعمال وصنع وأهمية الخمر والخبز ، ولكن اختراع غوتنبرغ أكثر اهميةً وسمواً لانه مكن الانسان من الاحتفاظ ، لخير الانسانية كلها ،بجميع ماقيل وما انتجه الفكر الانساني . بعد ذلك تابع أولئك الطابعون عملهم وطبعوا بين سنتي ١٤٧٠و١٤٧٣م اثنين وعشرين كتاباً كلها باللعة اللاتينية .

واول كتاب طبع في فرنسا باللغة الفرنسية تم طبعه في باريس سنة ١٤٧٦ م على يد باسكيه بونوم ، وهو عبارة عن كتاب يقع في ثلاثة مجلدات تضم كتب**تواريخ فرنسا الشهيرة** .

غير ان فن الطباعة مالبث ان تطور وتقدم بسرعة وذلك بفضل رعاية ملك فرنسا آنذاك لويس الحادي عشر ، بحيث تأسس نحو سبعين مطبعة في باريس وحدها خلال الثلاثين سنة التالية .

ثم دخلت الطباعة مدينة ليون التي ظلت حتى نهاية القرن السادس عشر من اهم المدن التجارية في اوربا . كذلك كانت مرموقة لمكانتها الثقافية ولكونها مركزاً رئيسياً من مراكز انتاج الكتب في اوربا الغربية كلها . ولقد اشتهر ، في تاريخ الطباعة في فرنسا ، عدد من الطابعين الذين لهم مكانة عظيمة في هذا الفن ، والذين اشتهروا كمزخرفين الى جانب كونهم طابعين . من هؤلاء جان دوبريه الطابع العظيم والفنان العبقري الذي طبع عدداً من الكتب كلها مزخرفة بالصور المحفورة على الخشب . وقد طبع سنة ١٤٨١ م كتاب**صلوات الكنيسة**بباريس محلى بصورتين . كما طبع بعد ذلك بسبع سنين كتاباً دينياً من كتب**ساعات**

الفروض ، وكان محلى بصور رائعة . ويجب ان نذكر هنا ايضاً كتاب القديس اوغسطين**مدينة الله** ، وقد طبعه نفس الفنان وابدع في تصويره وزخرفته مما جعل له مكانة عظمى ولامعة في فن الطباعة الفرنسي في عهده المبكر هذا . وهو نفسه ، اي جان دوبريه هذا ، هو الذي ادخل الحروف الاولى الكبيرة المحفورة على الخشب في الكتاب الفرنسي سنة ١٤٨٦ م .

ولعل اهم نوع من الكتب التي اشتهرت فرنسا في انتاجها آنذاك هو كتب ساعات الفروض ؛ وكانت هذه الكتب اكثر الكتب الدينية انتشاراً ، كما كانت اكثرها طباعة في عصر الطباعة الاول ، وقد ظهرت في طبعات رائعة الزخرفة .

على ان اشهر ناشر وطابع فرنسي هو رسام المخطوطات القديم انطوان فرار ، وان لم يكن قد قام بطبع كتبه بنفسه ، ذلك انه كان يستخدم عدداً معيناً من الطابعين الآخرين . وهكذا تمكن ان يدير خلال حوالي ثلاثين سنة من حياته ـ وهي الفترة التي ظهر فيها نشاطه ـ تجارة كبيرة في عالم روايات الفروسية والتاريخ وكتب الدين . وكانت كلها تقريباً باللغة الفرنسية ، بحيث اضمحلت تجارة الكتب الدينية المخطوطة باليد في هذه الفترة بشكل ملحوظ ، مما جعل الكتاب المطبوع يحرز قصب السبق ويتفوق على الكتاب المخطوط .

ولهذا نجح فرار في انشاء وتأسيس مؤسسة عظيمة ، كما باع كتباً دينية فاخرة للغاية كانت مطبوعة ومزخرفة ، وكانت هذه الكتب مطلوبة ومرغوبة وخاصة علية القوم ولاسيما الملك شارل الثامن الذي طبع له فرار نسخاً فاخرة وخاصة من كتاب**ساعات الفروض** . وكان فرار قد بدأ في انتاج هذه الكتب اعتباراً من سنة ١٤٨٥ م واصدر في السنوات التي تلتها سلسلتين من الكتب الاولى :**كتب الساعات الصغيرة** والثانية**كتب الساعات الكبيرة** ، وكان قسم من الاخيرة مطبوعاً على رق ، وقد صورت وزينت بصور محفورة على الخشب ورسمت باليد مع التذهيب والالوان الساطعة . ويلاحظ ان الزخارف في هذه الكتب تكاد تطغى على النص . وكانت باريس اكبر مركز لانتاج هذه الكتب التي جرت العادة بتصويرها بعناية شديدة ؛ لهذا صدرت باريس هذه الكتب بكميات وفيرة ، لااللاقاليم فحسب ، بل للخارج ايضاً . ولقد ظلت باريس زعيمة اوربا في انتاج

هذا النوع من الكتب حتى اواسط القرن السادس عشر .

كذلك يجب ان نذكر كتاب**الفارس الحكيم** المطبوع سنة ١٤٨٨ م من بين كتب فرار المصورة الاخرى والتي تمتاز بقيمة فنية عظيمة ، وكتاب**الاسطورة الذهبية** سنة ١٤٩٦ م وغيرهما من الكتب .

ولم يكن فرار هو الطابع الفرنسي الوحيد الذي عكف على نشر كتب ساعات الفروض ، فهناك معاصره الذي ذكرناه آنفاً جان دوبريه ، الذي طبع عدداً من كتب ساعات الفروض ذات الرسوم التي لم تصنع بطريقة الحفر على الخشب وانما طبعت على كليشيهات من النحاس المحفور على البازز .

كذلك يجب ان نذكر الناشر فوستر الذي لايقل عن فيرار في كل شيء يتعلق بالذوق الفني والنشاط التجاري . وهناك من بين ساعات الفروض التي طبعها فوستر مايعتبر من اجمل ما ظهر في فرنسا .

الطباعة في انكلترا :

من الغرابة بمكان ان اول كتاب باللغة الانكليزية لم يطبع في انكلترا وانما في بروج من الاراضي الواطئة وقد قام بطبعه وليم كاكستون بين سنتي ١٤٧٤ و ١٤٧٦ م الذي تعلم فن الطباعة وطباعة الكتاب بالانكليزية بعد ان قام هو نفسه بنقله الى الانكليزية ، والكتاب هو**مجموعة تواريخ طروادة** . ولقد انتقل كاكستون الى انكلترا سنة ١٤٧٦ م حيث اسس هناك مطبعة احضرها معه من الاراضي الواطئة . وقد استأجر مكاناً مناسباً قرب كنيسة وستمنسر وهناك قام بطبع عدد كبير من الكتب . واول كتاب طبعه كاكستون في انكلترا هو كتاب**اقوال الفلاسفة** سنة ١٤٧٧ م . كذلك قام بطبع مؤلفات الاديب الانكليزي تشوسر واشهر كتبه**قصص كنتربري** . ولقد كان كاكستون دقيقاً كل الدقة في طبع كتبه ولكنه لم يهتم كثيراً بزخرفة كتبه ، شأن جميع الطابعين الانكليز القدامى . وقد انتشرت المطابع في انكلترا كل الانتشار بعد وفاة كاكستون سنة ١٤٩١ م .

الطباعة في المانيا الشمالية والدول الاسكاندينافية :

بدأ فن الطباعة في الانتشار في المانيا الشمالية في نفس الوقت تقريباً الذي بدأ يظهر في الاراضي الواطئة وفرنسا حيث وجد عدد كبير من الطابعين المقتدرين . ولقد تركز الفن بمدينة لوبيك المشهورة بنشاطها . واول طابع عرف انه استقر في هذا المكان هو لوكاس براندیس الذي كان من بين مطبوعاته كتاب في التاريخ العام يدعى **خلاصة الانباء** . وهو كتاب كبير فاخر محلى بصور محفورة على الخشب .

كذلك ادخل الطباعة الى كل من الدانمرك والسويد طابع من لوبيك اسمه جوهان سنلSnell .

وهكذا لم تأت نهاية القرن الخامس عشر حتى انتشر فن الطباعة في جميع ارجاء اوربا ، باستثناء روسيا وعدد من دول البلقان ، كما وان اول مطبعة اسست في استانبول سنة ١٤٩٩ م .

وهناك مأثورات سعبية تذكر ان ثلاثة طابعين ذهبوا الى موسكو سنة ١٤٩٠ م ، ولكن ذلك غير مؤكد ، الا ان من المؤكد ان اول طابع معروف اتى الى العاصمة الروسية في سنة ١٥٦٣ م . ووصل الفن الطباعي الى فلسطين سنة ١٥٦٣ م والهند سنة ١٥٥٦ م واليابان ١٥٩٠ م . ووصلت الطباعة الى امريكا اللاتينية قبل مائة سنة من وصولها الى المستعمرات الانكليزية في امريكا ، فقد وجد في مدينة مكسيكو مطبعة وطابع في حدود سنة ١٥٣٠ م وفي البيرو سنة ١٥٨٠ م واول مطبعة اسست في المستعمرات الانكليزية هي التي تأسست في مستعمرة ماساشوسيتس سنة ١٦٣٩ م ، ووصلت الطباعة الى الفيليبين سنة ١٦٠٢ م وايران سنة ١٦٤٠ م والصين سنة ١٦٤٤ م .

لقد وجد في اوربا مطابع في حوالي ٢٦٠ موضعاً قبل سنة ١٥٠٠ م ، وبلغ انتاجها حوالي ٢٧ الف عنوان . لقد كان عدد النسخ الذي تصدره المطابع من كل كتاب يطبع في اول الامر قليلاً يتراوح بين ١٠٠ و ٣٠٠ نسخة .

ولقد حقق فن الطباعة تقدماً كبيراً في القرن الخامس عشر ، فقد ظهرت اول صفحة خلفية للعنوانColophon سنة ١٤٥٧ م ، وبدأت تضاف الى الكتب المطبوعة وسائل الايضاح المصنوعة بالحفر على الخشب منذ سنة ١٤٦١ م ، واستعمل النحاس المحفور منذ سنة ١٤٧٦ م . وقد ظهرت اول صفحة عنوان امامية سنة ١٤٦٣ م واول صفحة محتويات سنة ١٤٧٠ م وعملت محاولات لايجاد فهارس منذ سنة ١٤٨٠ م . وقد وصلت المطابع سنة ١٥٠٠ م الى درجة من التطور لم يحدث بعد ذلك وعلى مدى ٣٠٠ سنة بعد ذلك التاريخ الا في اضيق الحدود ووصل فن الخط المطبوع الى درجة من الكمال لم يبدأ في تخطيها الا منذ مائة سنة . ان اختراع الطباعة قد ادى الى ثورة ثقافية لم يسببها اختراع آخر مفرد منذ اختراع الكتابة . فقد اصبحت منذ ذلك الحين عملية ايصال الافكار الانسانية عبر الزمان والمكان عملية سريعة واقل كلفة .

ان حوالي نصف ماانتجته المطابع في القرن الخامس عشر كان كتباً دينية ، اما الباقي فكان موسوعات وكراسات وتقاويم وبعض كتب في الرياضيات والفلك .

ان مجموع ما انتجته المطابع في القرن الخامس عشر مدهش في عدده وفي كميته وفي مستواه وتنوعه . فقد وجد حوالي ٥٠٠ طبعة للتوراة او اجزائها ، وعدة مئات من الطبعات للكتب الدينية الاخرى مثل كتب الصلوات والمزامير . واذا اضيف الى هذا ما طبع من كتب آباء الكنيسة والقديسين واوائل الفلاسفة المسيحيين ترتفع نسبة الكتب الدينية التي طبعت في القرن الخامس عشر ، كما ذكرنا ذلك آنفاً ، الى حوالي ٥٠٪ من مجموع ماطبع . كما وان نسبة ماطبع من كتب القانون الروماني تصل حتى ١٠٪ من مجموع ماطبع بما في ذلك القانون الكنسي والشروح على القانونين . وبلغت نسبة كتب الادب ٢٠٪ بين كلاسيكية ووسيطة . على حين لاتبلغ نسبة جميع الكتب العلمية ١٠٪ وماتبقى تشمل كتباً

تاريخية ومدرسية ورحلات ومتنوعات .

ولقد تمتعت مؤلفات شيشرون وفيرجيل واوفيد وسينكا وهوراس وجوفينال وتيرانس بشهرة واسعة بين الكتب الكلاسيكية اللاتينية التي تم طبعها وطبعت اكثر من غيرها . وقد طبعت مؤلفات ارسطو وارستوفانيس وايسوب وهومير وجالينوس وثيوفراستوس وثيوكريتوس ويوربيديس من كتب التراث اليوناني . وطبعت اعمال بترارك وبوكاشيو ودانتي من اعمال مؤلفي القرون الوسطى . ويعتبر كتاب**حوليات** نورنبرغ من اشهر الكتب التي صدرت في حقل التاريخ .